

2013

(التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها في بنية (النقائص

أ.د. جبير صالح حمادي القرغولي
الجامعة العراقية - كلية الآداب

د. محمود شلال حسين القيسي
الجامعة العراقية - كلية الآداب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad>



Part of the [Arabic Studies Commons](#)

Recommended Citation

حسين القيسي, د. محمود شلال (2013) "التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها في and حمادي القرغولي, أ.د. جبير صالح (بنية (النقائص", *Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal*: Vol. 5 : Iss. 5 , Article 2.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad/vol5/iss5/2>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها في بنية (النقائض)

أ.د. جبير صالح حمادي القرغولي
د. محمود شلال حسين القيسي
الجامعة العراقية - كلية الآداب

مُقَدِّمَةٌ

لِمَ التجربة الشعورية ؟ وَلِمَ صارت النقائضُ ميداناً مقترحاً لالتماس عمقها وانعكاساتها ؟ كثيرةٌ هي التعريفات التي حاولت أن ترسم صورة واضحة الملامح للشعر، ومنها وصفه بـ (أنه عبارة عن صياغة فنية لتجربة بشرية)^(١). التجربة هي انعكاس الحياة علي وجدان الفرد، أيُّ انعكاسٍ يمس الروح أو يحرك العاطفة، إذ (ليس في الحياة كلها أمر يمكن أن تعتبره تجربة لها قيمتها الذاتية، التي تعلو بها على سواها، بل كل ما تقع عليه الحواس وكل ما يمس العاطفة، وكل ما ينفعل به الأديب هو مادةٌ فنية)^(٢) إنها صورة الإنسان في لحظة وهاجةٍ تضج بالتوتر، لأن (الشاعر يعبر في تجربته عما في نفسه من صراع داخلي، سواء كان تعبيراً عن حالة من حالات نفسه هو، أو عن موقف إنساني عام تمثله)^(٣). حتى الوهم والانفلات من قيود الواقع والمنطق والأعراف يمكن أن يعد تجربة شعورية، ما دام الإنسان مؤمناً بضرورته فـ (التجربة الشعورية إفضاء بذات النفس يشبه بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره، في إخلاص يشبه إخلاص الصوفي لعقيدته)^(٤) والانفعال الصادق بالتجربة واعتناقها بحرارة عاملان أساسيان لنجاحها في مد الجسور بين المبدع والمتلقي. إن (التجربة تعني في النهاية معاشة كاملة لإحساس معين من بدء ملاحظته إلي تخلّقه فنياً إلي تشكّله النهائي عالماً له

(١) النقد التطبيقي والموازنات، د . محمد الصادق عفيفي: ٥٩ مؤسسة الخانجي، مصر

١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

(٢) نفسه.

(٣) النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال: ٣٦٣، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،

القاهرة (د . ت) .

(٤) المصدر نفسه: ٣٦٤ .

حالة مثل هذه يمكن أن يقال فيها قولان، تقوم على كل منهما دلائل تؤكد حقيقته، الأول هو أن بنية القصيدة العربية في مراحل نشأتها الأولى كانت محكومة بمنهج صاغه الذوق الجمعي، والآخر هو إمكانية تأثير التجارب الشعرية في بناء القصيدة تأثيراً يفسح المجال للشاعر للتخفف من قيود المنهج أحياناً . أما المنهج المدروس الذي يخضع للقواعد النظرية في بناء القصيدة فلم يظهر تأثيره وتشيع أحكامه بين الشعراء والنقاد إلا في العصر العباسي (٣). وهنا نجد أن من الضروري تحديد المراد من تسمية (البنية) في منهج هذا البحث، ذلك لأن مفاهيم عدة انبثقت منها ومن تسمية أخرى تشترك معها في الجذر اللغوي، هي (البناء)، مثلما توحى بها تسمية ذات صلة هي (الوحدة)، سواء كانت (موضوعية) أو (عضوية) .

(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢٠١ — ٢٠٢ .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

قيل الكثير في التعريف بهذه التسميات^(١)، ولقد آثرنا منه فهماً محدداً للبنية، هو أنها (تتصل بتركيب النص)^(٢) وأن البناء (ربما ارتبط بالهيكل أو التصميم، ولذلك عدت ناقدة عربية البناء هيكلاً وعرفته بأنه الأسلوب الذي يختاره الشاعر لعرض الموضوع)^(٣) واستناداً إلى هذا الفهم نستطيع القول إن الشعر في عصر ما قبل الإسلام لا ينحصر في بنية محددة، وإنما تتعدد بناءه لتتفرع في أربع صور هي: بنية الرجز، وبنية المقطوعة، وبنية القصيدة ذات الموضوع الشعري الواحد، وبنية القصيدة المكتملة^(٤).

أما الرجز فهو وليد الانفعال الذي تفوق عناية الراجز باستيعابه عنايته بخلق الصورة، مما جعل بنيته محكومة بباعته الموضوعي .
وأما المقطوعة الشعرية فإنها لا تتيح فرصة مناسبة لتأمل بنية أدائية محددة .

وأما البنيتان الأخريان فإن طاقة التعبير الإبداعي في كل منهما أوسع مدى مما تفصح عنه الأرجوزة و المقطوعة، وإن كلاً منهما يمكن أن تعد الأنموذج (الشعري الذي يعتمد الشاعر الى صياغته بعد اجتياز مرحلة الانفعال الآني بالحدث، فيوفر له من قدرته الإبداعية ما يهيئ لنهاياته الحادة التي تستقر في الذاكرة فرصة التحول بالحدث إلى نسغ شعري، يمتزج فيه الباعث الموضوعي بالانفعال الإنساني وتستثمر فيه طاقة التعبير الإبداعي لإيصال القناعة المتفردة إلى وعي المتلقي من خلال استثارة مشاعره وانبهاره الفطري

(١) ينظر: بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم و المعاصر، مرشد الزبيدي: ١٣— ٢١، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٤ م .

(٢) المصدر نفسه: ١٩ .

(٣) نفسه وينظر: قضايا الشعر المعاصرة نازك الملائكة: ٢٣٤ ط ١٤، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٧ م .

(٤) ينظر: دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبدالله الجادر: ٨: مطبعة جامعة بغداد، العراق ١٩٩٠ م .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

بالأداء الجمالي^(١) وعلى الرغم من نقطة الالتقاء هذه، فإن (انبثاق القصيدة المكتملة واستقرار نمطها انتهى إلى وضعها أساساً لمعيار الفحولة الشعرية، وأخر القصيدة ذات الموضوع الشعري الواحد إلى مرتبة أدنى ويبدو أن هذه الحقيقة وقرت في نفوس العلماء، فكانت معيار اختيارهم لأفضل النماذج الجاهلية، بل إن الأمر بلغ عند بعض العلماء أن يتحدث عن القصيدة ذات الموضوع الواحد وكأنها استثناء من قاعدة^(٢) .

شاع فن النقائض في العصر الأموي شيوعاً جلياً، متخذاً غرض الهجاء منطلقاً، رافداً إياه بمهارات عدة هي ثمار (فهو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقيدية وفي الفقه وشؤون التشريع . وفي ضوء ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة، ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً^(٣)) قام أساس الهجاء في النقائض على العصبية القبلية التي اختلطت في العصر الأموي بالسياسة (وهيأ ذلك للنقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاء، بحيث أصبحت لا تحتوي فخراً وهجاء فحسب، بل تحتوي كذلك مديحاً ، كما تحتوي نسبياً وغزلاً. والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدل ونقض الدليل بالدليل، وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني . ولذلك كله أصبحت النقيضة عند الفرزدق وجريير عملاً فنياً معقداً^(٤)) ولا شك في أن صفة التعقيد الفني

(١) دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبدالله الجادر: ٩ .

(٢) المصدر نفسه: ٩ - ١٠ .

(٣) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف: ٢٤٢ ط ٧، دار المعارف، مصر ١٩٧٦م.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٥ — ٢٤٦

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

يمكن أن تشمل قصائد الأخطل، لانه يمثل واحداً من ثلاثة أقطاب بارزة في فن النقائض . ولقد رافقت شيوع النقائض حقائق وظواهر أثرت في بناء النقيضة ووسمتها بطابع من التميز . فهي تلبية لحاجات اجتماعية، يمثلها التطلع إلى نمط من التسلية وترجية أوقات الفراغ الذي شاع بعد نشأة المدن العربية والاستقرار فيها، فضلاً عن العامل السياسي الذي جعل الشعر سلاحاً للتبشير أو الرد على الخصوم .

ولقد كسا شعراء النقائض غرض الهجاء حلة أخرى غير التي رآه الناس فيها، فالنقائض (لم تأخذ شكلاً جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلاً من هذه الأشكال لشهرت معها السيوف ... فلم تكن المسألة مسألة هجاء حاد، إنما هي مسألة مناظرة فنية بالشعر في عصبيات القبائل والعشائر)^(١) وكذلك أسهم الجانب الموضوعي في التأثير في بناء النقيضة والخروج بها عن المنهج السائد . وأوضح ما يتجلى هذا في نقائض جرير والفرزدق (وأرجع الى أي فكرة عندهما، كفكرة أن الفرزدق قين، أو فكرة ذل بني كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التي يقف عندها في صور كثيرة، إذ ما يزال يولد فيها وما يزال يستنبط ويفرّع ويشعب، وكأنما يريد أن لا يبقى فيها بقية . وانظر في أي نقيضة يردُّ بها أحدهما على خصمه، فستراه يقف بإزاء كل بيت قاله صاحبه ويرد عليه)^(٢) مثل هذا التوجه جعل للنقيضة عالمها الخاص ويمكن أن يقال: منهجها الخاص الذي لا يرسمه الذوق الجمعي، بل تحكمه التجارب الشعورية الذاتية . وتتضح خصوصية منهج النقيضة حين نوازنه بمنهج قصائد الشاعر نفسه، التي ينظمها في ضوء تجارب شعورية أخرى وفي أغراض أخرى . فشعر الفرزدق مثلاً في عمومها (جاهلي النمط بدوي السمات لم يتأثر بالحضر، يمتاز بقوة

(١) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د . شوقي ضيف: ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٥١ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

نظمه وبلاغة أسلوبه وفصاحة ألفاظه، حتى تبدو القصيدة متراسة كالبنيان المتماسك^(١) ولقد نهج الشاعر الفرزدق في كثير من قصائده منهج الشعراء الجاهليين، سواء في افتتاح القصيدة، أو في تعدد أغراضها والموضوعات التي اعتادوا الإلمام بها قبل تناول الغرض الرئيس . ففي قصيدة يمدح فيها شاعراً من بني شيبان اسمه عبد الله بن عبد الأعلى بن أبي عمرة * يستهل قصيدته بالنسب شأن كثير من الشعراء فيقول :

سَمَا لَكَ شَوْقٌ مِنْ نَوَارٍ وَدُونَهَا سَوِيْقَةٌ وَالدَّهْنُ وَعَرَضُ جَوَائِهَا
وَكُنْتُ، إِذَا تُذَكِّرُ نَوَارُ، فَإِنَّهَا لِمُنْدِمِلَاتِ النَّفْسِ تَهْيَاضُ دَائِهِ^(٢)

ويصف رحلة له في أرض مقفرة، قطعها على ظهر ناقة قوية . واللافت أنه لم يذكر أية إشارة الى قطعه هذه الأرض وتجشمه عناء الرحلة وصولاً إلى الممدوح، مما يدل على أن هذا الوصف جاء انسياقاً وراء منهج اقتفاء الشعراء. يقول :

وَأَرْضٌ بِهَا جَيْلَانُ رِيحٍ مَرِيضَةٍ يَغُضُّ الْبَصِيرُ طَرْفَهُ مِنْ فَضَائِهَا
قَطَعْتُ عَلَى عَيْرَانَةٍ حَمِيرِيَّةٍ كُمَيْتٍ يَنْطُ النَّسْعُ مِنْ صُدَائِهَا^(٣)

(١) ديوان الفرزدق : ١٣، قدم له شرحه . مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٥ هـ / - ٢٠٠٤ م .

* هو عبد الملك الشيباني، كان شاعراً وكان أبوه شاعراً، وهو كثير الامثال في شعره . ينظر : مختصر تأريخ دمشق: لابن منظور (ت ٧٥١)، ١/٧٥١، دار صادر بيروت للطباعة .

(٢) الديوان : ١٩ .

(٣) نفسه .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

ثم ينتقل إلى لوحة أخرى سبقه إلى الإلمام بها الشعراء قبله، هي وصف الطرد، فيبدأ بوصف فرسه :

وَوَفَرَاءَ لَمْ تَخْرُزْ بِسِيرٍ وَكِيعَةٍ غَدَوْتُ بِهَا طِيًّا يَدِي فِي رِشَائِهَا
ذَعَرْتُ بِهَا سِرْبًا نَقِيًّا، كَأَنَّهُ نُجُومُ الثَّرَيَّا اسْفَرَّتْ مِنْ عَمَائِهَا
فَعَادَيْتُ مِنْهَا بَيْنَ تَيْسٍ وَنَعْجَةٍ وَرَوَيْتُ صَدْرَ الرُّمَحِ قَبْلَ عَنَائِهَا (١)

لينطلق بعد رسم هذه اللوحة . إلى غرضه الرئيس، وهو المدح . ولا يطرّد هذا المنهج في مدائح الفرزدق كلها، ففي مدائحه لخلفاء بني أمية ولعدد من رجال دولتهم

لا يترك فاصلة بين النسب و المديح، مثلما فعل في هذه القصيدة، فيلّم بالنسب الإماماً يسيراً — يطول أحياناً — ليشرع بعده بالمديح، مثل صنيعة في قصيدته التي يمدح فيها الوليد بن يزيد بن عبد الملك، إذ يقول في مطلعها:
أَبَيْتُ أَمْنِي النَّفْسَ أَنْ سَوْفَ نَلْتَقِي، وَهَلْ هُوَ مَقْدُورٌ لِنَفْسٍ لِقَاؤِهَا
وَإِنْ أَلْقَاهَا أَوْ يَجْمَعِ اللَّهُ بَيْنَنَا، فَفِيهَا شِفَاءُ النَّفْسِ مِنِّي وَدَاؤُهَا
ثم يأخذ بالمدح بعد هذا النسب مباشرة، فيقول :

أَرْجِي، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِحَاجَةٍ بِكَفِّكَ بَعْدَ اللَّهِ يُرْجَى قَضَاؤُهَا (٢)

ومثل منهجه هذا في المديح منهجه في الهجاء الذي تطورت من خلاله النقيضة، ذلك الذي انهال به على خصوم أو أشخاص هم خارج عالم النقائض (٣) .

أما في نقائضه فإن له منهجاً آخر مميزاً، يبتعد فيه - في الغالب - عن أي وجه شبه بما اعتاده في قصائده الأخرى. ولا يمكن الحكم بدقة على

(١) الديوان : ١٩ — ٢٠.

(٢) المصدر نفسه : ٢٢ ومثل هذه القصيدة كثير من مدائحه . ينظر : ٣٣ ، ٣٤ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٣ .

(٣) مثل هجائه المهلب بن أبي صفرة . ينظر : الديوان : ٢٦ وينظر : ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٨ .

التجربة الشعرية انعكاساتها وأثرها ...

ملاحظ هذا المنهج إلا من خلال نقائضه الطوال، أما النقائض القصار، والمقطوعات تحديداً فإن التحديد الدقيق فيها لطبيعة المنهج يتداخل بمواصفات المقطوعة الفنية .

عدد غير قليل من نقائض الفرزدق جاءت على شكل مقطوعات، وفيها يبدأ بمهاجمة خصومة، نابذا ما اعتاده الشعراء من المقدمات الطللية والنسيب، مثل قوله :

تَغْنَى جَرِيرٌ بِنُ الْمَرَاغَةِ ظَالِمًا لَتَيْمٍ، فَلَا قِيَّ التَّيْمِ مُرًّا عِقَابُهَا
وَتَيْمٌ مَكَانَ النَّجْمِ لَا يَسْتَطِيعُهَا، إِذَا زَخَرَتْ يَوْمًا إِلَيْهَا رَبَابُهَا^(١)

وبعد تسفيهه رأى جرير في هجائه بني تيم، يبدأ في هجاء عشيرة جرير وبيان هوان شأنهم، قياساً بتيم المعروفة صولتهم على الأعداء، فيقول :

كُلَيْبٌ لِنَامٍ مَا تَغْيَرُ سَوْءَةً، وَتَيْمٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ غُلْبٌ رِقَابُهَا^(٢)

الأبيات السابقة جزء من نص مكوّن من سبعة أبيات، ولعل شروع الفرزدق في الهدف الرئيس لهذا الفن جاء انصياعاً للمنهج المعهود في المقطوعات الشعرية، التي لا يتيح عدد أبياتها فسحة لتعدد الإغراض .

وللفرزدق مقطوعة أخرى في هجاء جرير، قوامها ثلاثة أبيات، نهج فيها المنهج ذاته، يقول في مطلعها :

نَكْفَى الْأَعْنَةَ يَوْمَ الْحَرْبِ مُشَعَّلَةً، وَابْنُ الْمَرَاغَةِ خَلْفَ الْعَيْرِ مَضْرُوبٌ^(٣)

ولكن منهجه في القصائد يبدو أوثق ارتباطاً بتجربته الشعرية وأكثر دقة في التعبير عن روحه وإفصاحاً عن طبيعة كيانه النفسي ؛ فحين تمور نفسه بانفعال عنيف، أو حين يعاني مرارة حادة من مؤثر خارجي، هو في

(١) الديوان: ٦٩ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه: ٨٤ وينظر: ١٠٧ .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

الغالب هجمة من خصمه جرير نراه يبدأ النقيضة برِدٍ عنيف بلا مقدمات، مثل قوله :

حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلَّى وَأَعَنَّا الْهَدْيِ مُقَلَّدَاتٍ^(١)

تبين هذه القصيدة أثر التجربة الشعورية في بنائها وتكشف عن أسلوب الشاعر في الاستجابة لها والإفصاح عنها، فنرى الشاعر يندفع وراء انفعاله الحاد ويستجيب لزخم غضبه المتفجر، فيبدأ هجومه العنيف، مقدماً إياه بالقسم ليزيده قوة وتأثيراً . ولم يكتف بقسم واحد، بل لجأ الى إيراد ثلاثة من المقدسات التي شاعت في حياة المسلمين، وهي الذات العلية (رب الكعبة) وعزرها — على الرغم من جلالها — بـ (المصلى) و (أعناق الهدى)، ليشعر بعد القسم مباشرة في الغرض الرئيس، وهو النيل من خصمه الذي أثار في نفسه ذلك الغضب، ليقول :

لَقَدْ قَلَّدْتُ جِلْفَ بَنِي كَلَيْبٍ قَلَائِدَ فِي السَّوَالِفِ بَاقِيَاتٍ^(٢)

ولان في القصيدة متسعاً للإسهاب نرى الشاعر يزيد فكرة البيت ايضاحاً، فيستطرد ليثري الاستعارة التي حققها في البيت السابق (قلائد) فيقول:

قَلَائِدَ لَيْسَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَكِنْ مَوَاسِمَ مِنْ جَهَنَّمَ مُنْضِجَاتٍ^(٣)

الفكرة الأولى من القصيدة هي الإخبار المؤيد بالقسم بصولة أثنى فيها الشاعر خصمه بالجراح، لينتقل بعدها الى أسلوب آخر هو الخطاب المباشر، إذ نقل خصمه جريراً من الغيبة الى الحضور، وراح يهاجمه بأسلوب يجيده ويبرع فيه، فيفاخره ويعدد مآثر قومه، ويذكر رجالهم الذين شادوا صرح الأمجاد . ويستغرق هذا الغرض ستة عشر بيتاً، يختتمها بقوله :

(١) الديوان: ١٢٤ .

(٢) نفسه : ١٢٤ .

(٣) نفسه .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

دَعَائِمُهَا أَوْلَاكَ، وَهُمْ بَنُوهَا
فَمَنْ مِثْلُ الدَّعَائِمِ وَالْبَنَاءِ
أَوْلَاكَ لِدَارِمِ وَبَنَاتِ عَوْفٍ
لِخَيْرَاتٍ وَأَكْرَمِ أُمّهَاتِ^(١)

هذا الفخر الذي استغرق القسم الأعظم من القصيدة هو الفكرة الثانية التي استوعبها بناؤها، وتبقى في هذا البناء فسحة، أعدها الشاعر لفكرة ثالثة وثيقة الصلة بالفكرتين السابقتين، وهي فكرة النيل من خصمه، هذه الفكرة التي يمكن أن تعد (المحور الموضوعي)^(٢) قياساً بالطابع العام والفهم السائد لرسالة النقائص .

جاءت الفكرة الثالثة في خمسة أبيات هي :

فَمَا لَكَ لَا تَعُدُّ بَنِي كَلْبٍ،
وَتَتَدَبُّ غَيْرَهُمْ بِالْمَأَثَرَاتِ
وَفَخْرُكَ يَا جَرِيرُ وَأَنْتَ عَبْدٌ
لِغَيْرِ أَبِيكَ إِحْدَى الْمُنْكَرَاتِ
تَعْنَى يَا جَرِيرُ لَغَيْرِ شَيْءٍ،
وَقَدْ ذَهَبَ الْقَصَائِدُ لِلرَّوَاةِ
فَكَيْفَ تَرُدُّ مَا بَعْمَانَ مِنْهَا،
وَمَا بِجِبَالِ مِصْرَ مُشَهَّرَاتِ
غَلَبْتُكَ بِالْمُفَقِّئِ وَالْمُعْنَى،
وَبَيَّتِ الْمُحْتَبَى وَالْخَافِقَاتِ^(٣)

حين نرصد الجانب الانفعالي في روح هذا القسم من النص سعيًا إلى تأشير قوة التجربة الشعورية نجده خافت الحدة — وهذا ملمح أسلوبى مؤثر في لغة النص — مما يعنى رصانة في التجربة وبعداً عن الشطط، وسما النص

(١) الديوان : ١٢٦ .

(٢) شاعت فكرة عن هيكل القصيدة في صورتها المثال ترى أن بناءها الفنى والموضوعى يتمثل فى

تشكيل فى ثلاثى هو: الافتتاحية والرحلة والمحور الموضوعى .

ينظر: مقدمات القصائد العشر (المعلقات) وعلاقتها بالتجربة الشعرية د. بهجت عبد الغفور

أحدثى: ٢، مجلة كلية الآداب، العدد (٧٣) .

(٣) الديوان : ١٢٦ .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

كله بروح متأنية — علي الرغم من سلبيتها — روح بعيدة عن عنفوان الشباب ونزق المتخاصمين.

جاءت أفكار القصيدة في مقاطعها الثلاثة متناسقة، يجمعها طابع واحد وأفكار تنتسب إلى عوالم ذات ملامح متشابهة، متأثرة بتجربة شعورية أحكمت سلطتها على النص بناءً ولغةً، فمما لاشك فيه أن في هذه القصيدة وحده عضوية خلقتها (العلاقة بين أبيات القصيدة والصلة الشكلية بينها)^(١)، وحدة تشمل الأفكار والمشاعر^(٢). ويتكرر طابع الوحدة العضوية هذا في قصيدة أخرى للفرزدق معدودة بين نقائضه، يهجو فيها الطرمّاح^(٣). ويرد عليه، قائلاً:

لَقَدْ هَتَكَ الْعَبْدُ الطَّرْمَاحَ سِتْرَهُ، وَأَصْلَى بِنَارِ قَوْمِهِ فَتَصَلَّتْ
سَعِيرًا شَوَتْ مِنْهُمْ وَجُوهًا كَأَنَّهَا وَجُوهُ خَنَازِيرٍ عَلَى النَّارِ مَلَّتْ^(٤)

ومتلما فعل الفرزدق في هجائه جريراً اندفع، مسوقاً بحدة انفعاله وثقل تجربته الشعورية في النيل من الطرمّاح معرضاً عن المنهج المعهود من نسيب ووصف طلل أو رحلة.

وجاءت القصيدة مبنية على فكرتين، الأولى هي الهجاء، واستوفاه الشاعر في أربعة أبيات، منها البيتان المذكوران يليهما قوله:

(١) بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصرة مرشد الزبيدي: ٧٧ دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٤ م.

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

(٣) الطرمّاح: هو أبو حكيم بن الحكم من طي، شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام وانتقل إلى الكوفة، وكان معلماً فيها. وله ديوان صغير. ينظر الاعلام لخير الدين الزركلي، ٣/ ٢٢٥ ط٣، بيروت، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، وينظر معجم الادباء، ياقوت الحموي، ١/ ٢٨٧، دار صادر، بيروت، (د. ت).

(٤) الديوان: ١٣٠.

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

فَمَا أَنْجَبَتْ أُمَّ الْعِلَافِيِّ طِيَّئٍ، وَلَكِنْ عَجُوزٌ أَخْبَثَتْ وَأَقَلَّتِ
وَجَدْنَا قِلَادَ اللُّؤْمِ حِلْفًا لَطِيَّءٍ مُقَارِنَهَا فِي حَيْثُ بَاتَتْ وَظَلَّتِ^(١)

أما الفكرة الأخرى فهي الفخر، هذا الغرض الذي يبرع فيه الفرزدق براعة تامة، يغذيها عمق تجربته واستعداده الفطري ومؤهلاته الذاتية وعراقة نسبه ومجد عشيرته . ولقد امتد هذا الغرض على الباقي من طول القصيدة وقوامه ثمانية عشر بيتاً، يبدوها الشاعر مفتخراً بقبيلته :

وَمَا مَنَعَتْنا دَارَهَا مِنْ قَبِيلَةٍ، إِذَا مَا تَمِيمٌ بِالسَّيُوفِ اسْتَظَلَّتِ
بَنِي مُحْصَنَاتٍ مِنْ تَمِيمٍ نَجِيْبَةٍ لِأَكْرَمِ آبَاءِ مِنَ النَّاسِ أَذَّتِ^(٢)

ولقد ساد الفخر الجمعي هذا القسم من القصيدة سيادة تامة، واختفت صورة الفرد — الشاعر — إلا لمحة بسيطة في قوله :

سَقَتَهُمْ زُعَافَ السَّمِّ حَتَّى تَذْبَذِبُوا، وَلَا قَوْأَ قَنَاتِي صُلْبَةً فَاسْتَمَرَّتِ^(٣)

ويبدو أن الشاعر تناسى ذاته وجهد في إعلاء اسم القبيلة، لأن خصمه من قبيلة أخرى .

وللتجربة الشعورية والانفعال أثرهما الجلي في إبداع الشاعر جرير، ثاني أقطاب ظاهرة النقائض، سواء في بنية القصيدة أو أسلوبها وطريقة الشاعر في التعبير .

من الأمور المتفق عليها أن اللغة العربية في حقيقتها لغة مجازية، بل إن الأستاذ عباس محمود العقاد وصفها في هذا المجال وصفاً أكثر عمقا ودلالة وتركيزاً، حين قال (إنها لغة المجاز)^(٤).

(١) الديوان : ١٣٠ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه : ١٣١ .

(٤) ينظر: اللغة الشاعرة — عباس محمود العقاد: ٥٣، دار المعارف بمصر، ١٩٥٧ م .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

إن هذا الأسلوب الأدائي العربي يتيح للشاعر (القدرة على نقل هواجسه وأحاسيسه وحالاته النفسية والتوترات الحادة التي يعاني منها ، أمام الحياة والموت والرحيل والاستقرار عبر كيانات موضوعية، النقطتها من واقعة إذ وجدها أكثر استشرافاً وأكثر استيعاباً لمعاناته، فأسقط عليها ما في نفسه ومنحها بعداً رمزياً)^(١).

في الأغراض الشعرية التي ألم بها الشاعر كلها، ولا سيما النفااض كان منطلقه تجربة شعورية تؤطرها مزيتان هما: الرقة في الطبع و حدة الانفعال، ولكلتيهما مجالها الرحب في نقيضته . إذ اعتاد أن يشرع في النقيضة منطلقاً من الجانب الرقيق في ذاته، و(هذه الرقة في الطبع جعلته يتفوق على منافسيه في المواقف العاطفية)^(٢) مثلما جعلته يمتاز من منافسيه وخصوصة بروعة استهلالاته في نقائضه حين يأخذ بالنسيب، الذي حرص على أن يلون به كثيراً من نقائضه، جامعاً فيه (بين أسلوبين: الأسلوب الجاهلي والآخر العذري، فهو يصف المرأة بما لجأ إليه الشعراء سابقاً من الأوصاف، وينتقل من تلك الأوصاف إلى داخل نفسه، ليحدثنا عن لوعته وألمه وعن نزعات الفؤاد والشكوى إلى الأرض والسماء)^(٣) نقائض كثيرة لجرير تؤكد هذا الرأي وتبين هذا الأسلوب، الذي لم ينصرف عنه الشاعر وهو في غمرة انشغاله بالنيل من خصومه، منها قصيدة يستهلها بمدح الأمير عبد العزيز بن مروان، ويشير فيها إلى خصومه من الشعراء، ذاكراً ما ألحقه بهم من هوان . يستهل جرير قصيدته ببيتين خصصهما لذكر الأمير هما :

(١) دراسات في الشعر العربي، د بهجت عبد الغفور الحديثي: ٤٨، جامعة بغداد، بيت الحكمة ،بغداد (د ،ت) .

(٢) ديوان جرير: ١٢، شرح د. يوسف عبد، دار الجبل، بيروت، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٣) المصدر نفسه: ١١ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

بَكَرَ الْأَمِيرُ لَغُوبَةً وَتَنَائِي؛ فَلَقَدْ نَسِيتُ بِرَامَتَيْنِ عَزَائِي
إِنَّ الْأَمِيرَ بَذِي طُلُوحٍ لَمْ يُبَلِّ صَدَعَ الْفُؤَادَ وَزَفَرَةَ الصُّعْدَاءِ^(١)

ويأخذ بعدهما بالنسيب، فيقول:

قَلْبِي حَيَاتِي بِالْحَسَنِ مُكَلَّفٌ، وَيُحِبُّهُنَّ صَدَائِي فِي الْأَصْدَاءِ
إِنِّي وَجَدْتُ بِهِنَّ وَجْدَ مَرْقَشٍ مَا بَعْضُ حَاجَتِهِنَّ غَيْرُ عَنَاءٍ
وَلَقَدْ وَجَدْتُ وَصَالَهُنَّ تَخْلُبًا، كَالظِّلِّ حِينَ يَفِيءُ لِلْأَفْيَاءِ
بِالْأَعْزَلَيْنِ عَرَفْتُ مِنْهَا مَنْزِلًا وَمَنَازِلًا بِقُشَاوَةِ الْخَرْجَاءِ^(٢)

وتمتد مقطوعة النسيب في سبعة أبيات، يأخذ الشاعر بعدها بالنيل من

خصومه، فيقول :

دَاوَيْتَ بِالْقَطْرَانِ عَرَّ جُلُودَهُمْ حَتَّى بَرَأْنِ، وَكُنَّ غَيْرَ بَرَاءِ^(٣)

ويمتد هجاء جرير خصومه الشعراء في أحد عشر بيتاً، نال فيها الفرزدق النصيب الأوفر من الهجاء، بوصفه أبرز خصومه وأبعدهم صيتاً وأخطرهم شأنًا . ويعود الشاعر بعد أن يفرغ شحنته من الانفعال إلى مديح الأمير في أربعة أبيات، يختتم بها القصيدة .

لمطلع القصيدة وخاتمتها، القائمين على مديح رجل مثل ممدوح الشاعر في هذه القصيدة صلة بغرضها الرئيس، بوصفها نقيضة من النقائص وهذه الصلة هي سعي الشاعر إلى الإيحاء للممدوح بالافتقار وعلو الشأن في قول الشعر، وهي دليل على الوحدة العضوية في بناء القصيدة .

وحين نحاول تقويم التجربة الشعورية في القصيدة فنياً، ومن خلال النظر في أكثر مقاطعها صلة بالجانب الوجداني، وهما مقطعان: النسيب

(١) ديوان جرير: ١٨ .

(٢) نفسه: ١٨ - ١٩ .

(٣) نفسه .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

والهجاء نجد هذا التجربة متواضعة، إذ اعتمدت على الشائع من أساليب التعبير في جانبي المعاني والألفاظ ولم يصل الشاعر فيها إلى أعماق الذات الإنسانية المنفعلة .

إن غايتنا من إيراد مثل هذه النقيضة المتواضعة فنياً هي الوصول إلى حكم، سترد أدلة عدة تؤكدوه وهو إن التجربة الشعورية عند جرير لم تكن متألفة دائماً، إنما يطرأ عليها أحياناً حالات من الخفوت وإن كانت هذه الأحيان قليلة، إذ تكثر في شعره الشواهد الراقية فنياً، والمعبرة عن روحه وعمق تجاربه الشعورية وحدة انفعاله وأصاله عواطفه . من هذه الشواهد قصيدة له يهجو فيها الأخطل، تداولها الرواة ورددوها معجبين بالجانب الوجداني الرقيق فيها، والمعبر عن إحساس متقد، يخلق مع خيال الشاعر عالماً من الفن ينبئ بعمق التجربة وأصالتها . ومطلعها:

بَانَ الْخَلِيطُ، وَكَوْ طُوْعَتْ مَا بَنَا، وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانَا^(١)

قوام هذه القصيدة فكرتان أو مقطعان، المقطع الأول هو النسيب، والآخر النيل من الشاعر الخصم وهو الأخطل، ولقد أجاد الشاعر ربط المقطعين فنياً على الرغم من التناقض الظاهر على مستوى التجربة الشعورية بينهما .

مثل مقطع النسيب القسم الأكبر من القصيدة، فامتد في ستة وخمسين بيتاً، منذ مطلع إلى قوله:

مَنْ ذَا الَّذِي ظَلَّ يَغْلِي أَنْ أَرْوَرَكُمُ أَمْسَى عَلَيْهِ مَلِكُ النَّاسِ غَضَبَاتَا^(٢)

أما المقطع الذي يمثل الغرض من القصيدة، والذي جعلها تنتمي إلى فن النقائض فامتد في اثني عشر بيتاً، تبدأ بقول الشاعر:

(١) الديوان : ٧٤٩ .

(٢) نفسه: ٧٥٥ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

ما يَدْرِي شُعْرَاءُ النَّاسِ، وَيَلْهَمُ، مِنْ صَوْتِ الْمُخْذِرِ الْعَادِي بِخَفَاتَا^(١)

وتنتهي بختام القصيدة وهو قوله :

لَنْ تُدْرِكُوا الْمَجْدَ أَوْ تَشْرُوا عِبَاءَكُمْ بِالْخَزِّ أَوْ تَجْعَلُوا التَّوْمَ ضَمَرَانَا^(٢)

ينبئ التفاوت الجلي في مساحة التعبير عن أي الفكرتين ألصق بطبيعة التجربة الشعورية القارّة في أعماق الشاعر، ويكشف أنه وهو في غمرة سعيه إلى النيل من الخصم، كان يستجيب — ربما بدون وعي منه — إلى طبيعة التجربة التي تفرض حضورها علي غيرها من التجارب، فكان هذا العرض المطول لمقطع النسيب، الذي كشف عن وجدان رقيق وحس مرهف وعواطف متدفقة، رأت النور مؤطرة بإطار من الخيال المبدع، الذي أجاد رسم شخوص مهينين لخلق قصة، يستسيغ الذوق الجمعي مساراتها وأحداثها .

زخم العواطف في هذا المقطع من القصيدة عال جداً، كفلت له التألق قدرة الشاعر التعبيرية وإجادته العرض ورصيده الفني الكبير .

هياً الشاعر في مقطع النسيب كل ما من شأنه أن يشارك في تأسيس عناصر قصة ناجحة مؤثرة: شخوص، منها رئيسة وثنائية، وأحداث متدفقة وعقدة، وأمكنة كثيرة، محاطة بذكريات، وزمان لا يخلو من إثارة وجدانية، وحوار إنساني حي وحركة مؤارة ورصيد من العواطف والانفعالات وتجربة شعورية ملتناعة، فضلاً عن أساليب تعبيرية ترصّع السياق التعبيري بألوان من العواطف والأحاسيس تحكم للتجربة بصدق الانفعال .

الشخوص الرئيسة في القصة هما طرفا العلاقة، الشاعر الذي هو السارد ومحبوبته النائية، التي يحاول من خلال الخطاب أن يثنيها عما هي عليه من صدود وجفوة .

(١) الديوان: ٧٥٥

(٢) نفسه : ٧٥٦ .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

أما الشخوص الثانوية، ففي طليعتها محبو الشاعر وأصدقائه المتعاطفون معه، ثم الوشاة، الذين لا يختلف دورهم في قصة الشاعر عن أدوارهم التي يؤدونها في قصص غيره، وهذا ما يبينه قوله:

قَدْ كُنْتُ فِي أَثَرِ الْأَطْعَانِ ذَا طَرْبٍ مُرَوَّعًا مِنْ جِذَارِ الْبَيْنِ مُحْرَانَا
يَا رَبُّ مُكْتَتَبٍ، لَوْ قَدْ نُعِيتُ لَهُ بَاكِ، وَآخِرَ مَسْرُورٍ بِمَنْعَانَا^(١)

ومن الشخوص الثانوية مسافر، استعان به الشاعر على تحيته لأحبابه، داعياً له بالجزاء والثواب، إذ يقول:

يَا أَيُّهَا الرَّكَّابُ الْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا، لُقَيْتَ حُمَلَانَا^(٢)

ويكشف الشاعر هنا عن ملمح أسلوبه، يؤكد عمق تجربته الشعرية وصدق انفعاله في مقطع النسب الذي جعله مقدمة للنقيضة، وذلك هو استطراده وأناته في التعبير عن خلجاته، أو وهو يرسم صورته، فبعد البيت المذكور، يوجه خطابه إلى (الراكب المزجي مطيته) فيقول:

بَلِّغْ رَسَائِلَ عَنَّا خَفَّ حَمْلُهَا عَلَى قَلَائِصَ لَمْ يَحْمِلْنَ حِيرَانَا
كَيْمَا نَقُولُ إِذَا بَلَّغْتَ حَاجَتَنَا أَنْتَ الْأَمِينُ، إِذَا مُسْتَأْمَنُ خَانَا^(٣)

وقريب من هذا تلك الأناة التي بدت على الشاعر، وهو يرسم صورة

استعان بها على التعبير عن معاناته، إذ يخاطب محبو بته قائلاً:

لَوْ تَعْلَمِينَ الَّذِي نَلْقَى أَوَيْتَ لَنَا، أَوْ تَسْمَعِينَ إِلَى ذِي الْعَرِيشِ شَكْوَانَا
كَصَاحِبِ الْمَوْجِ إِذْ مَالَتْ سَفِينَتُهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانَا^(٤)

لقد أحس الشاعر أنه يستطيع زيادة الفكرة التي انتظمها الشطر الثاني من أول البيتين جلاءً وتأثيراً، وهي فكرة الشكوى إلى ذي العرش سبحانه في

(١) الديوان : ٧٤٩ .

(٢) نفسه : ٧٥٠ .

(٣) نفسه : ٧٥٢ .

(٤) نفسه : ٧٤٩ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

قوله (أو تسمعين إلى ذي العرش شكوانا) فرسم صورة بث فيها أكبر قدر من العاطفة والرجاء والأمل والخوف، وذلك في اللحظات التي يشعر فيها الإنسان أنه موشك على فراق الحياة، هذا الشعور الذي ربما يكون في أوضح حالات الترقب في تلك الصورة التي لاشك في صدقها، وهي صورة السفينة الموشكة على الغرق، والأمواج العاتية تتلاعب بها وركابها في ذروة الرجاء والابتهاال، والخوف ينهش قلوبهم . وهي من صور القرآن الكريم وردت في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَّهْتُمْ بِهِمَّ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (١) .

أما الأحداث في هذه القصة فمنها ما يشير إليه الشاعر بوضوح، وهو يرسم صورة المحب الملتاع الذي يتبع ظعن محبوبته، ومنها ما يوحي به الخيال من خلال السياق، مثل كون المحبوبة لا تكثر بالحال التي آل إليها المحب، فتقابل حبه وتقربه منها بالصد والإعراض، فهو يقول:

يا أُمَّ عَمْرٍو ! جَزَاكَ اللَّهُ مَغْفِرَةً،	رُدِّي عَلَيَّ فُؤَادِي كَالَّذِي كَانَا
الَسْتُ أَحْسَنَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ،	يَا أَمْلَحَ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ إِنْسَانَا
يَلْقَى غَرِيمُكُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ	بِالْبَذْلِ بَخْلًا وَبِالْإِحْسَانِ حَرَمَاتَا
لَا تَأْمَنَنَّ، فَإِنِّي غَيْرُ آمِنِهِ،	غَدَرَ الْخَلِيلُ، إِذَا مَا كَانَ أَلْوَانَا
قَدْ خُنْتُ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَخْشَى خِيَانَتَكُمْ	مَا كُنْتُ أَوَّلَ مَوْثُوقٍ بِهِ خَانَا (٢)

ومن أحداث هذه القصة الشعرية ما يذكي روح العاطفة ويلتصق بوجدان المتلقي، وهو يصدر عن شخوص القصة أو يحيط بهم، فيعزز القناعة بصدق عقدها وحقيقة انتسابها إلى الواقع، إذ ليس غريباً صدود الحبيبة وتمنّعها،

(١) سورة يونس: الآية ٢٢ .

(٢) الديوان : ٧٥١ .

◀ د. د. جبير صالح & د. محمود شلال ▶

وليس نادرا استماتة محب جفاه أحبته، وإصراره على المضي في درب المعاناة، يطربه صليل أغلاله، ولعل الأبيات الآتية توحى بشيء من هذا:

يا طيب! هل من متاعٍ تمتعين به ضيفاً لكم باكراً، يا طيب، عجلاًنا
ما كنت أول مشتاق أخا طرب، هاجت له غدوات البين أحراناً
لقد كتمت الهوى حتى تهيمني، لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت أسباب دنياك من أسباب دنيانا^(١)

ويواجه المحب عادة صنوفاً من المنغصات، أكثرها شيوعاً العواذل والوشاة والحساد وأشدّها خطراً غيرة أهل المحبوبة وذوي قرباها . وقد نال جرير من هذه المنغصات شيئاً غير قليل، أفصح عنه قائلاً:

قالت: تعرّ، فإن القوم قد جعلوا، دون الزيارة، أبواباً وخزاناً
لما تبينت أن قد حيل دونهم ظلت عساكر مثل الموت تغشانا^(٢)

ولمثل الحوار الوارد في البيت الأول من هذين البيتين شواهد أخرى في القصيدة تؤكد الروح القصصية، وتؤدي غايات الحوار التي يضطلع بأدائها في فن القصة^(٣) وأما المكان فإن القصيدة حافلة بذكر أمكنة عدة، تنبئ عن صلة وثيقة الروابط، يمثل الشاعر واحداً من أطرافها، إذ إن المكان في النص الأدبي يحاط دائماً بشبكة من العلاقات والرؤى ووجهات النظر التي تتعاضد مع بعضها البعض، لتكون جزءاً من الفضاء الذي تجري فيه الأحداث^(٤) .

(١) الديوان : ٧٥١ — ٧٥٢ .

(٢) نفسه : ٧٥٣

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٧٥٠ — ٧٥١ .

(٤) ينظر: بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي: ٣٢، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

و(المكان دون سواه يثير إحساساً ما بالمواطنة، وإحساساً آخر بالزمن والمحلية، حتى لنحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه) (١) .

بعض هذه الأمكنة طول، و(إن اللحظة الطللية هي النقطة التي تلقي فيها ثلاث من علائق الإنسان: علاقة الإنسان بالمجتمع في لحظته السكونية، وعلاقة الإنسان بالمجتمع في لحظته التاريخية (بالماضي)، وعلاقة الإنسان بالطبيعة التي تشترط وجوده كله) (٢) .

من هذه الأمكنة ما هو بعيد الغور في وجدان الشاعر، أي شاعر كان، إذ تداوله أغلب الشعراء، وهو شحيح الدلالة، إلا في حدود ذات المبدع، وقلما يحدث الأثر ذاته عند المتلقي . ومثل هذا النوع من الأمكنة يُشار إليه غالباً بلفظة (المنازل) أو (الديار) أو (الرسوم)، وقد وردت لفظتاً (المنازل) و(الدار) في قول جرير:

حَيِّ الْمَنَازِلِ إِذْ لَا نَبْتَغِي بَدَلًا بِالْأَرَارِ دَارًا، وَلَا الْجِرَانِ جِيرَانًا (٣)

ومن هذه الأمكنة ما يبلغ فيه وهج الدلالة حداً، يُعَجِّلُ بانشداد المتلقي وتمثله تجربة الشاعر الوجدانية إلى درجة المشاركة فيها وتبنيها، وذلك حين يحيطها المبدع بإطار من الواقعية التي تضيء عليها ملامح البيئة المألوفة، التي لا تقف حائلاً دون ولوج خيال المتلقي في رحابها .

(١) إشكالية المكان في النص الأدبي: ياسين النصير، ٥، ط ١، دار الشؤون الثقافية العامة،

بغداد ١٩٨٦ م .

(٢) دراسات في الشعر العربي القديم: ٤٩ .

(٣) الديوان : ٧٤٩ .

◀ د. جبير صالح & د. محمود شلال ▶

ولا يكفني جرير بفيض الدلالة في هذا النوع من الأمكنة إنما يوشّي دلالة المكان بلمسات فنية، تزيده قرباً من المتلقي، أو تزيد المتلقي انشداداً إلية، فـ (مَلَح) مثلاً (ماء) من مياه العرب المعروفة له مكان في ذاكرة أجيال من البشر، مثلما له مكان مثيل في النشاط الأدبي، هو مكان خاص محدد إذن، ومن هذا المكان الخاص ينطلق جرير مصطحباً المتلقي إلى فضاء عام أرحب لا ليقطع الصلة بالمكان الخاص، بل ليزيد المتلقي انغماراً في عالم صورته التي رسمها فوق رمال ذلك المكان . يقول:

تُهدي السَّلامَ لأهلِ الغُورِ من مَلَحٍ^(١) هَيْهَاتَ مِنْ مَلَحٍ بِالْغُورِ مُهْدَانَا
أَحْبَبَ إِلَيَّ بِذَلِكَ الْجَزَعِ مَنْزِلَةً، بِالطَّلَحِ طَلْحًا وَبِالإِعْطَانِ^(٢) أَعْطَانَا^(٣)

فما ورد من أماكن — غير ملح — إنما جيء بها لأجل تعزيز فكرة فرادة ذلك المكان وتميزه . ويلجأ جرير إلى أسلوب آخر في قصيدته عندما يذكر الأمكنة التي يوظفها لنقل تجربته إلى المتلقي، فيوحي أن في السياق ما هو أكثر أهمية من المكان ودلالته ،ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن النتيجة التي سيفضي إليها السياق هي هيمنة المكان على ما سواه من مكونات السياق، فهو يقول :

لَقَدْ كَتَمْتُ الْهَوَى حَتَّى تَهَيَّمَنِي، لَا أَسْتَطِيعُ لِهَذَا الْحُبِّ كِتْمَانَا
كَادَ الْهَوَى يَوْمَ سَلْمَانِينَ يَقْتُلْنِي، وَكَادَ يَقْتُلْنِي يَوْمًا بَبِيدَانَا^(٤)

(١) ملح: ماء لبني العدوية

(٢) وردت في الديوان (والإعطان) والصواب ما اثبتناه .

(٣) الديوان : ٧٥٠ .

(٤) السلمانيين وبيدان: موضعان .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

وَكَادَ يَوْمَ لَوَى حَوَاءٌ^(١) يَقْتُلْنِي لَوْ كُنْتُ مِنْ زَفَرَاتِ الْبَيْنِ قُرْحَاتَا^(٢)

لا يخفى أن بؤرة النص، أو الفكرة المحورية فيه هي مكابدة المحب وعناؤه، هذه الفكرة التي ستبقى غائمة، غير واضحة المعالم، ما لم تقترن بما يكشف عن ملامحها، فكانت الأمكنة شاهداً يؤكد صدق المقولة، وكان التكرار اللطيف الرائق (كاد ٠٠٠٠ يقتلني) أداة اعتمدها المبدع ليرسخ الفكرة التي أثمرت أهمية المكان، فضلاً عن تأكيد عناء المحب^(٣).

ويظهر تأثير التجربة الشعورية على الإبداع الأدبي عند الأخطل؛ ثالث شعراء النقائض الكبار، يظهر ذلك التأثير في مظهر آخر، يرتبط بالدور الذي ارتضاه لنفسه، وهياته له ظروفه، الذاتى منها والعام، فهو لم يعد شاعر قبيلة، يقف عند حدود مصالحها ويكتفي بالدفاع عن قضيتها، إذ تجاوز هذا فأصبح شاعر سلطة عليا تفوق مصالحها مصلحة أكبر القبائل، سلطة تعد نفسها مسؤولة عن الجميع ومتحكمة بأمر الجميع، سلطة تمثلها رموز، ينبغي لمن يخاطبها أن يحسن فنون التوسل إليهم والتقرب منهم، هذه الفنون التي كان المديح أكثرها شيوعاً وتأثيراً. (والأخطل في مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجريز، بل لاشك في أنه يتقدم أولهما، إذ كانت نفسه صلبة، وكان يعتز بآبائه اعتزازاً شديداً، فلم يبرع في المديح، إنما برع في الفخر. أما

(١) لوى حواء: موضع في اليمامة .

(٢) الديوان: ٧٥١

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٧٥٢ .

جرير فكانت نفسه لينة، ومن ثم يُعدّ هو والأخطل في المديح فرسي رهان^(١) وبسبب تهوره وعدوانيته وطبعه الحاد نال الخطوة عند بني أمية، حين سخر هذه الخصال في عالم الشعر، وجعل نتاجه الشعري سلاحاً يشهره في وجوه خصوم بني أمية. وحادثة هجاءه للأنصار هي أسطع دليل على هذا. (ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بني أمية، فهو يعيش لهم، يمدحهم وهم يغدقون عليه)^(٢) ولم يلهه هذا الدور الذي اضطلع به عن البقاء مشاركاً باندفاع وقوة في الذود عن اسم قبيلته ومصالحها، في أثناء الخصومات القبلية حامية الوطيس، التي ثارت في أوائل العهد الأموي. اقترنت الرغبة في التقرب من ولادة الأمر والتتعم بعطاياهم بالولاء القبلي، فتأجج الانفعال والتهب، وألهب التجربة الفنية، التي هي (رغبة [في] الإفصاح عن الخوارج، بما يخالف الأعراف أو بما يتخطاها. وحيثما حدث تناقض وخصام في النفس، أو بين النفس والعالم الخارجي، أكان ذلك في مظاهره أم في قيمه وعاداته وتقاليده، عندئذ تتولد التجربة الفنية. ولا غلو في القول بأن سلبيات الحياة تغدو إيجابيات في الفن ٠٠٠ فالداء والعاهة والفقر والشر والقبح والظلم والجهل والتخلف والموت، وكل عاهة تصيب الوجود ٠٠٠ إنما تدوي دويّاً عميقاً في وجدان الفنان)^(٣).

-
- (١) تأريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف: ٢/ ٢٦٣ ط ٧، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦ م.
- (٢) المصدر نفسه: ٢/ ٢٦٠.
- (٣) في النقد و الأدب، إيليا الحاوي: ٣٣/٢ — ٣٤ ط ٤، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٩ م.

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

إن مدائحه لخلفاء بني أمية ورجال حكمهم البارزين تتضمن إشارات إلى خصمه جرير، تثير التساؤل عن السبب الذي يجعله يلتفت عن مدح رموز السلطة إلى هجاء شاعر، يمثل عنواناً للخصومة الفردية . والذي يبدو جلياً هو أن جريراً صار يمثل عنده قبائل قيس وكل خصوم السلطة .

وكان رجال السلطة يدركون ذلك (ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك بن مروان حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدموا من خدمات لبني أمية، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين، وهي دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين، كما ينال من قيس وشاعرهم جرير، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته ((خف القطين))^(١) .

كان الخلفاء الأمويون الذين عاصرهم الأخطل ذوي ذائقة فنية ممتازة، ولا سيما عبد الملك بن مروان، فصار لزاماً على الأخطل، شأن غيره من الشعراء أن يلتزم المنهج المعهود في نظم الشعر، لأنه أيسر السبل التي توصله إلى غايته، (وإن كنا نلاحظ في الوقت نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة، إذ كان يتفوق على خصميه جميعاً في حلاوة الألفاظ وجمال النغم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها، ومدائحه في عبد الملك تعد درره الشعرية)^(٢).

حظيت قصيدة الأخطل التي أشار إليها الدكتور شوقي ضيف باهتمام النقاد والدارسين لجودتها وتمثيلها أنموذجاً راقياً محكماً للقصيدة المدحية، التي

(١) تأريخ الأدب العربي، د . شوقي ضيف: ٢ / ٢٦٢ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٢٦٣ .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

أحسنت الوفاء بغاية المبدع، سواء في ألفاظها ومعانيها، فنالت قبول الممدوح وإعجاب المتلقين .

يمكن أن تُعدّ هذه القصيدة ظاهرياً من القصائد متعددة الأغراض، مما يحول دون وصفها بالوحدة الموضوعية، ولكنها في الحقيقة تمتلك، من خلال تجربة الشاعر روحاً وأجواء ستجعل هذا الحكم قابلاً للرد، لان موضوعاتها (تآلفت واتحدت ضمناً، في التعبير عن الهموم التي يتنازع بها الشاعر والمشكلات التي يعمل لها، فهي تتضمن في وحدة الهموم والمشاعر النفسية)^(١) كما يمكن أن تُعدّ. — وهذا هو الأهم — من النقائص المميزة، التي نالت تميزها في الأساس من طبيعة بنائها الموضوعي، فضلاً عن عناصر الإبداع الأخرى، ذات الحضور الفاعل^(٢) .

تتألف هذه القصيدة من أربعة وثمانين بيتاً، بدأها الشاعر بمطلع تقليدي في النسب، يقول فيه:

خَفَّ الْقَطِينُ، فَرَا حُوا مِنْكَ، أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ^(٣)

يستغرق النسب سبعة عشر بيتاً من القصيدة، حافلةً بصور ومعانٍ تقليدية متداولة، لم يأت فيها الأخلل بما يوحي بزخم العاطفة أو حرارة الانفعال والمعاناة، اللذين لو وازنا ما هو موجود منهما في هذه القصيدة بما

(١) في النقد والأدب: ٢١٧/٢ .

(٢) عدّت هذه القصيدة من بين نقائص الشعراء . ينظر: نقائص جرير والأخلل، منسوب لأبي تمام: ٢١٢ شرحه وحققته د . محمد نبيل الطريفي، ط ١، دار صادر، بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

(٣) ديوان الأخلل: ٨٥ شرح مجيد طراد، دار الجيل، بيروت، (د . ت) .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

موجود منهما في مقطع النسيب في قصيدة جرير، التي ذكرناها آنفا لرجحت كفة الثانية بشكل جلي، يؤكد تفوق جرير في مجال الأحاسيس الوجدانية .

هذا الأمر يدل على ملمح أسلوب، يمتاز به كل واحد من الشعارين، وهو ذو صلة بطبيعة التجربة الشعورية والبناء النفسي لكل منهما، فروح جرير المرهفة وعاطفته الجياشة تكفلان له التفوق في مجالات التعبير الوجداني العاطفي، في حين تضافرت عوامل ذاتية وموضوعية لتكفل للأخطل التفوق في المديح، الذي كان أكثر أغراض قصيدته فناً وتأثيراً . وهذه الأغراض هي، فضلاً عن النسيب المديح، وامتد في ثلاثة وثلاثين بيتاً، والفخر، وخصص له الشاعر سبعة أبيات، والهجاء، وقد جاء في سبعة وعشرين بيتاً .

حرص الأخطل على ديمومة صلته ببني أمية وتمتينها، رغبة في المكاسب الشخصية والقبلية، فضلاً عن إن إرهابات مرجعيته الدينية تدفعه ليجهد نفسه، ولينبقي أفضل ما تتضججه حرارة انفعاله من صور وأفكار، فيحشدها في مقطع المديح، ولقد فعل ونجح نجاحاً باهراً .

أما ما نعينه بإرهابات المرجعية الدينية، فهي جملة من الأحاسيس المتشابهة، وربما المتنافرة التي خلقت حالة من الأزمة النفسية التي توجب الانفعال، هذا الانفعال الذي يمثل الطريق الممهد للإبداع، إن إحساسه بغربته الدينية بين خصوم يشتبك بهم في صراع عنيف، وسلطة يسعى لكسب رضاها يجعله خاضعاً لتأثير توتر نفسي، يفرض عليه حالات من الرجاء والقلق والإشفاق، وربما صاحب هذه الأحاسيس امتنان وعرفان آثارهما في وجدانه تقريب رجال السلطة له وتفضيلهم إياه وهو المسيحي على حشد كبير من

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

الشعراء المسلمين . فاجتهد وأظهر أفضل ما عنده من الصور والمعاني المستمدة من التراث الإسلامي، صور ومعان يرضاها أولو الأمر، لأنها تمثل سلاحاً لهم ضد خصومهم ومناوئهم . بدأ الأخطل بسرد هذه المعاني منذ بداية مديحه عبد الملك بن مروان، فقال:

إلى أمرىء لا تُعدّينا نوافله أظفَرهُ اللهُ، فَلْيَهْنا لَهُ الظَّفَرُ^(١)

ولا شك في أن الأخطل سبقَ إلى الإلمام بهذا المعنى، ولكنه لم يجد ضيراً في عرضه، لأن ممدوحه يخوض صراعاً يكاد يكون حرباً والحرب ظرف ملائم لتزجيه البضاعة الكاسدة، وإذ بدا لنا هذا المعنى طبيعياً عادياً، إنه عند رجال السلطة كثير الأهمية (لان هؤلاء جعلوا يدعون أن السلطة هي هبة من لدن الله، وأن الله هو الذي يقدر الأمور، وليس على الشعب سوى الطاعة . وهكذا فإن الأخطل بالرغم من كونه مسيحياً، كان يعرف المعاني التي توافق الدين الإسلامي وهوى الأمويين الذين كانوا يشجعون الجبرية وما فيها من دعوة الإذعان لمشيئة القدر)^(٢) .

ويستمر في الامتياح من معين المعاني الدينية، على الرغم من شيوعها وهذا (يدلنا على طبيعة المدح السياسي في شعر الأخطل، إذ إنه يلتفت إلى المعاني التي تشوق الممدوح فيؤكد لها، ممعنا فيها بالغلو)^(٣) فيقول:

الخائضِ الغمرَ، والميمونِ طائره خليفة الله يُستسقى به المطرُ^(٤)

(١) الديوان : ٨٨ .

(٢) في النقد والأدب، أيليا الحاوي: ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣) المصدر نفسه: ٢٠٧ .

(٤) الديوان : ٨٨ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

ويستمر فيشيد بحزم الخليفة ووفائه بعهوده، بعيداً عن الكبرياء والغرور،
ليُلمَّ بعد هذا بصورة جميلة، سبق في الإتيان بها ، ولكن يسجل له أناته إذ جاء
بها واستطراده بحثاً عن الوسائل المؤثرة في الممدوح . يقول في معرض
مديحه:

وما الفرات، إذا جاشت حوالبه في حافتيه وفي أوساطه، العُشْر^(١)
وذعذعته رياح الصيف، واضطربت فوق الجآجىء، من آذيه، غُدر^(٢)
مُسْحَفَرٌ من جبال الروم يستره منها أكافيف فيها، دونه زور^(٣)
يوماً، بأجود منه، حين تسأله ولا بأجهر منه، حين يجتهر^(٤)

وهذه الصورة تزين واجهة من معلقة النابغة الذبياني — الذي يبدو تأثر
الأخطل به جلياً — إلى جوار صور أخرى رائعة، شدت أنظار النقاد
ودارسي الأدب . يقول النابغة:

فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمي أواذيه العبرين بالزبد^(٥)
يُمده كل وادٍ مزبد لجب فيه حطام من الينبوت والخصد^(٦)

(١) الحوالب: الامواج . العشر: نوع من الشجر .

(٢) ذعذعته: حركته تحريكاً شديداً . الجآجىء: جمع جؤجؤ وهو الصدر . الاذى: الموج
المرتفع.

(٣) مسحفر: سريع الجري . أكافيف: كل ما يكف الماء عن الجري ويجعله منحسباً في
جوانب الضفتين . الزور: الميل والانحراف .

(٤) الديوان : ٨٨ — ٨٩ .

(٥) أواذيه: امواجه . العبرين: الناحيتان .

(٦) الينبوت: ضرب من النبت . الخصد: ما ثني وكسر .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

يَظُلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِماً بِالْخِيزَرَانَةِ بَعْدَ الْأَيْنِ وَالنَّجْدِ^(١)

يَوْمًا بِأَطِيبَ مِنْهُ سَيْبٌ^(٢) نَافِلَةٌ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ^(٣)

وتبقى صورة النابغة في موقع الصدارة حين نوازن صورة الأخطل بها لسبقها زمنياً، ولسبب آخر أكثر أهمية هو لمحة الملاح داخل إطارها، وهو يتشبث بالخيزرانة خوفاً من خطر الأمواج المصدق به . ويستترد الأخطل في المديح، ويوغل بعيداً في آفاقه، ليدنو من عالم الملاحم . إذ يقول :

مُقَدِّمًا مَائَتِي أَلْفَ لِمَنْزِلِهِ مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جَنَّ وَلَا بَشَرَ

يَغْشَى الْقَنَاظِرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِمُهَا مُسَوِّمٌ، فَوْقَهُ الرَّايَاتُ وَالْقَتَرُ^(٤)

استرعى هذا النص اهتمام الدارسين، فهو (ينبري بالقصيدة إلى فلذة ملحمة تتسامى، خاصة عندما يصبح الجنود خارقين مروعين ليسوا بشراً وليسوا جنأ، بل هم أعظم من البشر فضلاً عن الجن، وهذا المعنى غلو وتصاعد من المعني الذي ألم به النابغة ... واصفاً النعمان)^(٥)

لا شك في أن استطراد الشاعر، أي شاعر أو أناته وهو يلم بفكرة أو صورة دليل على التصاق الحدث بوجدانه، وهو صورة لجانب من جوانب تجربته الشعورية . ولقد ظهر استطراد الأخطل وأناته في مقطع مديحه لعبد

(١) الخيزرانة: السكان، وهو ذنب السفينة . الاين: الإعياء . النجد: العرق والكرب .

(٢) وردت في المصدر (شَيْب) والصحيح ما أثبتناه .

(٣) شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات: صنعة ابن النحاس (ت ٣٣٨ هـ)،

١٧٤/٢ - ١٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د. ت) .

(٤) الديوان : ٩٠ .

(٥) في النقد والأدب: ٢ / ٢٠٨ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

الملك بن مروان، وفي كل فكرة يطرب لها وتستهويه، ولا سيما في وصف

الأخطل لمصرع واحد من أعداء الممدوح البارزين، إذ يقول:

وَقَدْ نَصِرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَا لَمَّا أَتَاكَ بِبَطْنِ الْغَوَاطَةِ الْخَبْرُ
يُعرفونك رأس ابن الحُبَابِ، وَقَدْ أَضْحَى، وَلِلسَيْفِ فِي خَيْشُومِهِ أَثَرُ
لَا يَسْمَعُ الصَّوْتِ مُسْتَكَاً مِسامعُهُ وَلَيْسَ يَنْطِقُ، حَتَّى يَنْطِقَ الْحَجَرُ
أُمَسْتُ إِلَى جَانِبِ الْحَشَاكِ جِيفَتُهُ وَرَأْسُهُ دُونَهُ الْيَحْمُومُ وَالصُّورُ^(١)
يَسْأَلُهُ الصَّبْرُ مِنْ غَسَّانٍ، إِذْ حَضَرُوا وَالْحَزَنُ: كَيْفَ قَرَاكَ الْغِلْمَةُ الْجَشْرُ^(٢)

(والشاعر يستبطن في هذا المقطع عاطفتي الفخر والثأر، فخره ببطولة

بني قومه وتشفيه بالثأر من الأعداء، ممثلاً ذلك بقوله: {وقد أضحى ولل سيف

في خيشومه أثر} وهذا المشهد يجسد عظم تمثيلهم بعدوهم، ويجهض حقد

الشاعر عليه، فالسيف هنا سيف الثأر والتشفي والصورة الحسية تتطوي على

دلالة نفسه عميقة^(٣)

ولعل البيت الثالث من المقطع شاهد حي على الاستطراد الذي يفصح

عن تجربة منفصلة، تستلهم مظاهر الواقع الدالة الموحية، أو تختار في أثناء

انفعالها من مظاهر الواقع ما يوافق هوى الممدوح ويثيره .

(١) الحشاك: نهر من ارض الجزيرة بين دجلة والفرات يصب في دجلة . اليحموم

والصور: موضعان بالشام .

(٢) الديوان: ٩٣ . الصبر والحزن: بطنان من غسان . الجسر: القوم يخرجون بدوابهم إلى

المرعى، ويقون مكانهم ولا يأوون إلى البيوت .

(٣) في النقد والأدب: ٢ / ٢١٥ .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

وللأخطل نقائض أخرى تفصح عن عمق التجربة الشعورية وأثرها في

بنائها، منها قصيدته التي مطلعها:

عفا واسط من آل رضوى، فنبتل
فمجتع الحرين، فالصبر أجمل^(١)

إن جانباً مهماً من تجربته المهيمنة على هذه القصيدة من طراز آخر بعيد كل البعد عن أجواء النقائض العابسة المكفهرة، إذ أفرغ كما كبيراً من رصيده العاطفي والفني في مقطع يصف فيه الخمرة وصورتها وأثرها في نفوس الندامي وأجسادهم، ولقد أجاد إجادة تجسد للمتلقى شغفه بها، وصدقته الفني في تصوير الأحاسيس التي بثها بين خطوط صورته الفنية في هذا المقطع، فبعد مقدمة طلبية قوامها أربعة أبيات ينعطف بشكل مفاجئ ليصف الخمرة ومجلسها في عشرين بيتاً، وكان لو أعرض عنها وشرع في الغرض الرئيس من القصيدة لما أثار استغراباً، ولكن الانفعال والعاطفة وهما عماد تجربته دفعاه إلى هذا السبيل ليفرغ فيه زخم أحاسيسه .

بعد أن استوفى في أربعة أبيات صورة المحب الذي أذهله رحيل أحبته اختتم المقطع بقوله:

كأنني، غداة انصعن للبين، مسلم
بضربة عنق، أو غوي معذل^(٢)

ووجد في لمحة (الغوي المعذل) منفذاً رحباً إلى غايته التي أرادها ميداناً

يعرض فيه تفاصيل تجربته، فقال:

(١) نقائض جرير والأخطل: ٨٩، الديوان: ١٥٣ .

(٢) الديوان : ١٥٣ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

صريعٌ مُدامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ ليحيا، وَقَدْ مَاتَ عَظَامٌ وَمَفْصِلٌ^(١)

وراح يعرض هذه التجربة الزاخرة بالانفعال والعاطفة في حشد من الصور، عرضها بتأنٍ وإسترسال ينمّان على شدة ولوعه بهذا النمط من الخيال، إذ استعان به على إفراغ شحنات عاطفية مَوَّارة في ذاته، غير متخرج من الافصاح عنها، فأخذ يصف ما جرى بصريع المدام الذي أثقلت الخمرة رأسه .

نُهاديه أحياناً، وَحِيناً نَجْرُهُ وما كاد إِلَّا بِالْحُشاشَةِ يَعْقِلُ^(٢)
إِذَا رَفَعُوا عَظْمًا تَحَامَلَ صَدْرُهُ وآخر، مِمَّا نَالَ مِنْهَا، مُخَبِّلٌ

ثم ينتقل بعد مجموعة الصور التي رسم بها حالة صريع المدام الى أفق لوحة أخرى خصصها لوصف جانب من عالم وصف الخمر، ولقد أبدع إذ انتقل وصف الخمر من مشاهد محدودة لا تتعدى أثر الخمرة في نفس شاربها وجذوتها في الكأس، انتقل من هذا إلى رحاب عالم فسيح مترامي الأطراف، تقطعه قوافل مخصصة لنقل دنان الخمر وأوعيتها بين الأقطار .

شَرَبْتُ، وَلَا قَانِي لِحِلِّ أَلَيْتِي قِطَارٌ تَرَوَى مِنْ فِلَسْطِينَ مُثْقَلٌ^(٣)
عَلَيْهِ مِنَ الْمِعْزَى مُسَوِّكٌ رَوِيَّةٌ مُمْلَأَةٌ يُعْلَى بِهَا وَتُعَدَّلُ^(٤)
فَقُلْتُ: اصْبَحُونِي، لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ وما وَضَعُوا الْإِثْقَالَ، إِلَّا لِيَفْعَلُوا^(٥)

(١) الديوان : ١٥٤ .

(٢) نهادية: نسوقه . الحشاشة: بقية الروح في الجسد.

(٣) الألية: اليمين . القطار: قطع الابل .

(٤) المسوك: الجلود . الروية: الضخام . تعدل: توضع على الجانبين .

(٥) اصبحوني: اسقوني صباحاً .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

أناخوا، فجرؤوا شاصيات، كأنها
رجال من السودان، لم يتسرّبوا^(١)
وجأؤوا ببيسانية، هي، بعدما
يعل بها السّاقى، ألدّ وأسهل^(٢)
تمرُّ بها الأيدي، سنيحاً وبارحاً
وتوضع بلههم حيّ وتحمل^(٣)
وتوقف، أحياناً، فيفصل بيننا
غناء مغنّ، أو شواء مرعبل^(٤)

ولا يخفى رصيد هذه اللوحة من الابداع الفني، الذي يوحي بأن الشاعر
منصرف كلياً لاستقاء كل ملامح اللوحة ودقائقها .

أول ملامح الإبداع في اللوحة أنها حية نامية متحركة، عرض الشاعر
في مستهلّها مشهد قافلة عن بعد، ثم راح يقترب منها بآلته التصويرية
تدرجياً، فتزداد معالمها انكشافاً، لنرى أن حمولة القافلة هي زقاق خمر،
عُنت في بلدة اشتهرت بطيب أجوائها، وأن أصحاب القافلة قد أحاطوا هذه
الزقاق برعاية، إذ يذكرون اسم الله تعالى حين يرفعونها أو ينقلونها تعظيماً
لأمرها .

وكلما اقترب الشاعر من القافلة ازدادت صوره وضوحاً، ولعل صورة
جلود المعزى المترعة خمرأً، وقد ارتفعت قوائمها لإمتلائها شاهد حي على
رهافة الذوق والإبداع في التعامل مع الموجودات وتصويرها .

ومن جوانب الابداع الأخرى وفاء هذه اللوحة بالتعبير عن الجوانب
النفسية والعلاقات الاجتماعية القائمة بين الشخص، فما أسرع ما يتوقف

(١) شاصيات: من شصا برجله، اذا رفعها، أي الزقاق المرتقة القوائم من امتلائها .

(٢) ببيسانية: نسبة الى بيسان بناحية الاردن . العلّ: الشرب لمرة ثانية .

(٣) السنيح: الذي يأتي من ناحية اليمين، والبارح الذي يأتي من ناحية الشمال .

(٤) الديوان: ١٥٤ - ١٥٥ . المرعبل: اللحم المقطع .

فَلَدَّتْ لِمُرْتَاحٍ، وَطَابَتْ لَشَارِبٍ
فَمَا لِبَيْتِنَا نَشْوَةٌ لِحَقَّتْ بِنَا
فَصَبُّوا عُقَارًا فِي إِنْءٍ، كَأَنَّهَا
تَدْبُ دِيبًا فِي الْعِظَامِ، كَأَنَّهُ
فَقُلْتُ اقْتُلُوهَا عَنْكُمْ بِمَزَاجِهَا
وَرَاجَعْنِي مِنْهَا مِرَاحٌ وَأَخِيلٌ^(١)
تَوَابِعُهَا، مِمَّا نَعْلُ وَنَنْهَلُ
إِذَا لِمَحْوِهَا، جُذُوءٌ تَتَأْكُلُ
دِيبٌ نِمَالٍ فِي نَقَا يَتَهَيَّلُ^(٢)
فَأُطِيبَ بِهَا مَقْتُولَةٌ، حِينَ تُقْتَلُ^(٣)

رَبْتُ وَرَبًّا فِي حَجَرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ يَظَلُّ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكَلُ^(٤)

(٤) ربت: أي الخمرة، أراد بها الكرمة . ربا في حجرها: نشأ في كنفها . ابن مدينة: خادم حاذق . يتركّل: يدفع برجليه .

═══════ أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال ═══════

إِذَا خَافَ مِنْ نَجْمٍ عَلَيْهَا ظَمَاءٌ أَدَبَ إِلَيْهَا جَدُولًا يَتَسَلَّلُ^(١)

لا شك في أن وراء كل هذا الاستطراد والأناة والتأنق في رسم أجواء عالم الخمر تجربة شعورية دافقة، لا تقل رسوخاً في وجدان الأخطل عن تجربة جرير، وهو يلم بأشواق المحبين ويصف صباياتهم .

ولقد سخر الأخطل مقطعاً آخر من قصيدته لاحتواء جانب متأزم قائم من تجربته الشعورية، ذلك هو انعكاسات الصراع القبلي المحتدم، الذي كانت قبيلته واحداً من أطرافه . فبعد أن يفرغ من الحديث عن الخمر، يشير في أربعة أبيات إلى عاذلة تنقل عليه وتدفعه إلى اللّيّاذ إما بعالم أحلامه وماضيه السعيد، وإما بعالم الآمال . ولقد استغرق الحديث عن هذين العالمين سبعة عشر بيتاً تمثل مقطع وصف الرحلة .

جعل الأخطل المدخل إلى عالم أحلامه قوله:

فَلَمَّا انْجَلَتْ عَنِّي صَبَابَةٌ عَاشِقٍ بَدَأَ لِي مِنْ حَاجَاتِي الْمَتَمَلُّ

إِلَى هَاجِسٍ مِنْ آلِ ظُمِيَاءٍ، وَالتِّي أَتَى دُونَهَا بَابُ بَصْرَيْنَ مُقْقَلُ^(٢)

وأما رحلته إلى عالم آماله فقد جعل مدخلها قوله:

إِلَى ابْنِ أُسَيْدٍ خَالِدٍ^(٣) أَرْقَلْتُ بِنَا مَسَانِيفُ، تَعْرَوْرِي فَلَاةً تَغُولُ^(٤)

(١) الديوان، ١٥٥-١٥٦ .

(٢) نفسه.

(٣) ابن أسيد خالد: هو خالد بن أسيد بن أبي العيس بن أمية بن عبد الشمس الأموي، وهو من جلة العلماء . ينظر: مختصر تأريخ دمشق: لابن منظور، (ت ٧٥١ هـ) ، ١٠ / ١٠١٩ ، وينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي، تحقيق: شعيب الارناؤوط، ٢٢٣/١٣ ط١، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٤) الديوان، ١٥٧ . الممدوح . أرقل: مشى سريعاً . المسانيف: التي استرخت احزمته من الاعياء . تعروري: تركب عارية . تتغول: تتلون .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

وحشد لكل من العالمين صوراً تناسبه وتقنع المتلقي بصدق المبدع في التعبير والتصوير، فالرحلة إلى عالم الأحلام رحلة خيالية، تلائمها محفزات الخيال البهيجة، ومثيراته: البیداء الممتدة الآفاق، وأسراب النعام فيها كأنها قطعان إبل سارحة بلا رعاة، ولمعان السراب يخيل للراعي رجالاً، تتعري من ثيابها لتعود فتلبسها، ثم تتعري من جديد، وفلاة لا يستبعد الظن أنها ملعب للجن .

أما عالم الآمال فإن صورته أقل إشراقاً وأنساً، فلا بهجة مطلقة ولا حدود ممتدة . إن هناك دائماً خطراً داهماً، وقدراً تنذر طلائعه بالعناء، فالأبل تبدو متعبة منذ بدء الرحلة إلى الممدوح، والسراب الذي كان أنيساً رقيقاً في رحلة الأحلام صار مخادعاً يجعل الثعلب يبدو مثل الحصان الذي يلبس الجلال والإبل التي كانت في رحلة الأحلام آمنة، حتى وهي بلا رعاة صارت في رحلة الآمال فريسة للسباع والعناء .

ويبدو أن هذه الصور القاتمة هي مقدمة للأجواء التي تسود في القصيدة، حين تصل الأحداث إلى ذروتها، فيفصح الشاعر عن الغرض الأساس، وهو الوفاء بروح النقيضة، حينها سيبدو جلياً أن مقطع الرحلة، الذي يبدو منهجاً تقليدياً في القصيدة حمل هو الآخر شيئاً غير قليل من انعكاسات تجربة الشاعر، وينتهي مقطع الرحلة بوصول الشاعر إلى ممدوحه، ليبدأ مقطع المديح، مستغرقاً سبعة عشر بيتاً، شاعت فيها معانٍ تقليدية، مما يدور في فلك الفضائل التي مجدها العرب، مفقدة حرارة الانفعال، وذلك الإيحاء بصدق المبدع وإيمانه بالقضية التي يتضمنها النص، فضلاً عن أن الشاعر خصص نصف مقطع المديح لوصف كثافة السحاب وغزارة المطر ومجري السيول، وهي معانٍ وجودها أقرب إلى الجانب الفني منه إلى الجانب الموضوعي، أي تأكيد سجايا الممدوح، الذي بدت المرارة جليةً على الشاعر، وهو يعاتبه، عند شروعه في الغرض الرئيس في القصيدة .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

عشرة أبيات قامت على العتاب والفخر، وحملت صورةً وافيةً جليةً لطبيعة تجربة الشاعر، متقدةً بشدة العتاب والألم وحرارة الانفعال الذي أحال الغضب فخرًا، يواجهه من خلاله الشاعر ولادة الأمر بجرأة وثقة عاليةً بالنفس، مستهيناً بالمخاطر كلها من أجل المجد .

يستهل الشاعر هذا المقطع مشيراً إلى خيبة أمله في الحاكم الذي أخلص

له:

لَقَدْ أَوْقَعَ الْجَحَافُ ^(١) بِالْبِشْرِ وَقَعَةً	إِلَى اللَّهِ مِنْهَا الْمُشْتَكَى وَالْمُعَوَّلُ ^(٢)
فَسَائِلُ بَنِي مَرْوَانَ، مَا بَالُ ذِمَّةٍ	وَحَبْلٍ ضَعِيفٍ، لَا يَزَالُ يُوصَّلُ ^(٣)
بَنَزْوَةٍ لَصٍّ، بَعْدَمَا مَرَّ مُصْعَبٌ	بِأَشْعَثَ، لَا يُقْلَى، وَلَا هُوَ يُغْسَلُ ^(٤)
أَتَاكَ بِهِ الْجَحَافُ، ثُمَّ أَمَرَتْهُ	بَجِيرَانِكُمْ عِنْدَ الْبُيُوتِ تُقْتَلُ
لَقَدْ كَانَ لِلْجِيرَانِ، مَا لَوْ دَعَوْتُمْ	بِهِ عَاقِلَ الْأُرْوَى أَتَكُمُ تَنْزَلُ ^(٥)

تدفقت آلام الشاعر في هذا المقطع وارتفعت شكواه، فحدثت فعلها في نفس الحاكم^(٦) وتغجرت آلامه غضباً وهو يرى عدم اكتراث الحاكم بما لحق بقومه من تنكيل، فارتفع صوته منندراً:

(١) الجحاف: هو ابن حكيم السلمي، فاتك ثائر شاعر كان معاصراً لعبد الملك بن مروان، غزا تغلب بقومه فقتل منهم كثيرين فاستجاروا بعبد الملك فاهدر دم الجحاف فهرب إلى الروم . ينظر الأعلام: للزركلي، ١١٣ / ٢، وينظر الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، ٥/٤، ط٤، مطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٣ م .

(٢) البشر: موضع من ديار بني تغلب . المعول: الاعتماد .

(٣) يعاتب بني امية لأنهم لم يهبوا للدفاع عن بني تغلب .

(٤) النزوة: الوثبة . اللص: اراد به الجحاف .

(٥) الديوان: ١٦١ . الاروى: انثى الوعل . العاقل: المعتصم في الجبال .

(٦) ينظر : المصدر نفسه: ١٦١ .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

فَإِنْ لَا تُغَيِّرْهَا قُرَيْشٌ بِمُلْكِهَا يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرْحَلٌ^(١)
وَنَعْرُزُ أَنْسَاءَ عَرَّةٍ يَكْرَهُونَهَا وَنَحْيَا كِرَامًا، أَوْ نَمُوتُ، فَنُقْتَلُ^(٢)
وَإِنْ تَحْمِلُوا عَنْهُمْ، فَمَا مِنْ حَمَالَةٍ وَإِنْ ثَقُلْتِ، إِلَّا دُمُ الْقَوْمِ أَثْقَلُ^(٣)
وَإِنْ تَعْرِضُوا فِيهَا لَنَا الْحَقَّ، لَمْ نَكُنْ عَنْ الْحَقِّ عُمِيَانًا، بَلِ الْحَقَّ نَسْأَلُ
وَقَدْ نَزَلَ الشَّجَرُ الْمَخُوفَ، وَيُتَّقِي بَنَا النَّاسِ وَالْيَوْمِ الْأَعْرُ الْمُحْجَلُ^(٤)

وهذه القصيدة واحد من الشواهد على أن تعدد الأغراض في النقيضة لا يحول دون ظهور أثر التجربة الشعورية، وإن هذا التعدد لا يمنع ان توصف القصيدة متعددة الأغراض بالوحدة الموضوعية، حين تنتظم هذه الأغراض روح مشتركة تغذيها تجربة الشاعر .

(١) المستماز: المنتقل من مكان الى آخر .

(٢) نعرز: من العر، أي نصيب بالجرب من شدة الاذى.

(٣) الحماله: الدية .

(٤) الديوان: ١٦١ - ١٦٢ . الشجر: المكان الذي يتقدم منه العدو .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال

الخاتمة والنتائج

التجربة الشعورية مؤثر فاعل في الخلق الإبداعي للنص .
 النقائص، بوصفها شكلاً إبداعياً محدداً، ميدان رحب، يصلح لالتماس
 آثار التجربة الشعورية .

للتجارب الشعورية أثرٌ كبير في بناء النقائص سواء منها ما التزم الشكل
 الفني الذي ارتضاه الذوق الجمعي ؛ وما تحرر من هذا المنهج .

تفاوت منهج شعراء النقائص الكبار في بناء القصيدة، بحسب الاستعداد
 الفني والتكوين النفسي في المقام الأول، ثم طبيعة التجربة الشعورية وعمقها .

جعل الفرزدق المقطوعة والقصيدة كليهما وعاءً للنقيضة .

لا يمكن الحكم على منهج الفرزدق في بناء النقيضة إلا من خلال دراسة
 نقائضه الطوال، أما النقائص القصار، والمقطوعات تحديداً فإن الوصف
 الدقيق فيها لطبيعة المنهج يتداخل بمواصفات المقطوعة الفنية .

مال الفرزدق - في الغالب - إلى جعل النقيضة من قصائد الغرض
 الواحد . وقد يعزى ذلك إلى تكوينه النفسي العنيف، وعدم رغبته في كتمان
 الشعور بالغضب، والانشغال بغرض آخر، يستنفد قدراته الفنية . في حين
 نجد لديه، في غير هذا الاتجاه قصائد كثيرة جداً، جاء بناؤها على وفق المنهج
 الذي اعتاده الشعراء السابقون في تعدد أغراض القصيدة .

٨- للتجربة الشعورية أثرها في نقائص الشاعر جرير، سواء في بنية
 القصيدة أو أسلوبها .

٩- مزيتان ثابتتان أطرتا تجربة جرير الشعورية، هما: الرقة في الطبع
 وحدة الانفعال ولقد اعتاد أن يشرع في النقيضة منطلقاً من الجانب الرقيق في
 ذاته.

١٠ - لا تعد نقائص جرير من القصائد المتعددة الأغراض، إذ يبنى
 أغلب نقائضه على غرضين، أولهما النسيب، والآخر هو الذي يفى بروح
 النقيضة، سواء كان مدحاً أو هجاءً .

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

١١- ارتبط تأثير التجربة الشعورية على بناء النقيضة عند الأخطل، بالدور الذي ارتضاه لنفسه وهيأته له ظروفه، فسبب قربه من الخلفاء الأمويين، ذوي الذائقة العربية المحافظة، كان لازماً عليه أن يلتزم المنهج المعهود في بناء النقيضة .

١٢- في أغلب النقائض ذات الأغراض المتعددة يهيمن طابع واحد، وأفكار تنتسب إلى عوالم ذات ملامح متشابهة، مما يسم هذه النقائض بطابع الوحدة الموضوعية .

أ.د. جبير صالح & د. محمود شلال
المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إشكالية المكان في النص الأدبي: ياسين النصير، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦ م .
- الأعلام: خير الدين الزركلي، ط٣، بيروت، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م .
- بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر: مرشد الزبيدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١ م .
- بنية الشكل الروائي: حسن البحراوي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠ م .
- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف، ط٧، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦ م.
- دراسات في الشعر العربي: د. بهجت عبد الغفور الحديثي، جامعة بغداد، بيت الحكمة بغداد، (د.ت).
- دراسات نقدية في الأدب العربي: د. محمود عبد الله الجادر، مطبعة جامعة بغداد، العراق، ١٩٩٠ م.
- ديوان الأخطل: شرح مجيد طراد، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
- ديوان جرير: شرح د. يوسف عبد، دار الجيل، بيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥ م.
- ديوان الفرزدق: قدم له شرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م.
- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط١، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م.
- عن اللغة والأدب والنقد: د. محمد أحمد العزب، المركز القومي العربي للثقافة والعلوم، بيروت، (د.ت).

التجربة الشعورية انعكاساتها وأثرها ...

- شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات: صنعة ابن النحاس أبي جعفر أحمد ابن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت ٣٣٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت.

- في النقد والأدب: إيليا الحاوي، ط ٤، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩م.

- لسان الميزان: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، ط ١، مطبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٠هـ /

١٩٧١م.

- اللغة الشاعرة: عباس محمود العقاد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٧م.

- مختصر تأريخ دمشق: للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين بن منظور (ت ٧٥١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.

- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، (دت).

- نقائض جرير والأخطل: المنسوب للإمام الشاعر الأديب أبي تمام، شرحه وحققه د. محمد نبيل طريفي، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

- الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، ط ٤، مطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٣م.

المجلات والدوريات

- مقدمات القصائد العشر (المعلقات) وعلاقتها بالتجربة الشعرية: د. بهجت عبد الغفور الحديشي، مجلة كلية الآداب، بغداد، العدد ٧٣.

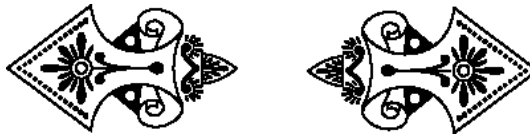
Emotional Experience Implications and Impact (In the structure of the contradiction)

A Study submitted by:

Prof. Dr. Jubeir Saleh Humady Al-Karaghooly / Al-Iraqia
University/ College of Arts &
Dr. Mahmood Shalal Hussein Al-Keisi

Abstract

Contradiction is a literary phenomenon occupied a prominent position in the history of Arabic literature and recorded an important stage of Arab political and social history. Perhaps one of the signs of the excellence it has is that it established a literary tradition that replaced description with sword where poets resort to their poetic abilities instead of weapons. It is the kind of poetics arts that mostly submit to the impact of emotional experience and the most prominent compliance to the effect of the inner world of the innovator as its technical construction became translated to the innovator world whether complicated or easy ... simple or cruel and here lies its importance, and perhaps the findings of the present study confirms this.



???? ?????? and ??? ??: ?????? ?????? ?????? ?? ??? (?????)